﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الأحقاف: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّدرُّجُ في المُناظرةِ تقريرٌ لَهُم عَلى المُعاندة

لمّا أبطلَ اللّه تعالى إلهيَّةَ أصنامِهم بأنَّهم عاجزونَ عن خلقِ شيءٍ من الأشياء أوَّلًا، وانتقلَ إلى إثباتِ صِدقِ نبوَّة محمَّد ﷺ، وحكى عنهم نسبتَهُ إلى الافتراءِ على اللّه تعالى بالنُّبوَّة والآيات، وأبطلَ دعواهم بما يلزمُ من الافتراءِ على اللّه تَعالى مِنَ العقوباتِ التي لا مانعَ لها، وأنَّه لم يكُن بِدْعًا من الرُّسُل؛ فما الدّاعي إلى تكذيبِه، وقد سُبق لدعوتِهِ التَّوحيديَّة بدَعَوات غيرِهِ من الأنبياءِ؛ ناسَبَ أن يُنْتَقَلَ إلى استدلالٍ آخرَ، وهو فرضُ صِدقِهِ فيما يُخبِرُ به عن ربِّه، وذلك الفرضُ الَّذي شهِدَ أهلُ الكتاب بوقوعِهِ مُسبقًا حاكمٌ عليكم بالظُّلم لأنفُسِكم، ولما جاءَ بهِ مِنَ الحقِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَشَهِدَ﴾: (شهد) تدلُّ تصريفاتُه على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادةً، وهو: شاهدٌ وشهيدٌ[2]، والشَّهادة: خبَرٌ قاطع، تقولُ منه: شَهِدَ الرَّجلُ على كذا، وقولُهم: أشهَدُ بكذا، أي: أحلِفُ، وشَهِدَه شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهدٌ، وقومٌ شُهودٌ؛ أي: حُضورٌ، وهو في الأصل مصدرٌ، وأشْهَدْتُهُ على كذا، فَشَهِدَ عليه، أي: صارَ شاهِدًا عليه[3]، والشّاهِد: العالم الذي يُبيِّن ما علِمَهُ،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 12.
(2) العين، الخليل: (شهد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الجوهري، الصحاح: (شهد).

والجمعُ: شُهداءُ وشُهَّدٌ وشُهّادٌ وأشْهادٌ وشُهودٌ[1]، وشَهِدْتُ الشَّيءَ: اطَّلَعْتُ عَلَيه، وعاينتهُ، فأنا شاهِدٌ، ويُعَدّى بالهَمزَةِ، فَيقالُ: أشْهَدْتُهُ الشَّيءَ[2]، والمراد به في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: عَلِمَ، وأخبرَ بصحَّتِهِ الموفَّقون من أهل الكتاب[3].

2) ﴿مِثْلِهِۦ﴾: (مثل) تدور اشتقاقاتُه على مناظرة الشَّيء للشَّيء[4]، يقال: ما لهذا مَثيلٌ، أي: نظيرٌ، والمِثالُ: ما جُعِلَ مقدارًا لغيره، وجَمْعُهُ: مُثُلٌ، وثلاثةُ أمثلةٍ[5]، ومِثْل: كلمةُ تسويةٍ، والعربُ تقولُ: هو مُثَيْلُ هذا، ومَثَلُ الشَّيءِ: صفتُهُ[6]، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾: على مُشابِهِ القرآن ومُناظِرِهِ من المعاني المتضمَّنة في التَّوراةِ ممّا طابقَتْ ما في القُرآنِ من التَّوحيد والوعد والوعيدِ، ونحو ذلك[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّن اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ رسولهُ محمَّدًا ﷺ يُخاطب مُشْرِكي قومِه بسؤالٍ تقريريٍّ يفضَحُ باطِلَهُم، فيقول لَهُم: أخبروني إن كان هذا القرآنُ مِن عند اللّهِ تَعالى حقًّا، فكفَرتُم به تعنُّتًا واستكبارًا، وشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيلَ - كَعَبْدِ اللّه بنِ سَلام - بِما في كتابِهِم من خبرٍ عنكَ، فصدَّق، وعَمِلَ بما جاء به القرآنُ الكريمُ، وأعرضْتُم أنْتُم عنها استكبارًا وعنادًا، فهذا أعظمُ الظُّلم، وأكبرُ الكُفْر، واللّهُ تَعالى لا يَهْدي قومًا ظَلَموا أنفسَهُم بِجُحودِهِم الحقَّ واستِكْبارِهِم عَن اتِّباعِهِ[8].

الاستِكْبارُ عمّا جاءَ بِهِ القُرآن أعظَمُ الظُّلْمِ وأكبَرُ الكُفْرِ

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (شهد).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (شهد).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 779.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الخليل، العين: (مثل).
(6) الجوهري، الصحاح: (مثل).
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.
(8) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 503.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ قولٍ عن الآخَرِ في المناظرةِ؛ إذ كلُّ قولٍ من الأقوالِ السّابقةِ يَنقُضُ وهْمًا، ويُقيمُ حُجَّةً، ويوضِّحُ شريعةً، ويُبِينُ عن غايةٍ حتّى تجتمعَ كلُّها في إثباتِ الوحدانيَّةِ وصِدقِ الرِّسالةِ وأمانةِ الرَّسولِ ﷺ.

الوعيدُ الشَّديد على التَّكذيبِ والحَضُّ الأكيدُ عَلى التَّصْديقِ

والأمرُ بالقَولِ واردٌ على جِهَةِ التَّهديدِ والتَّوبيخِ معَ وعيدٍ شديدٍ مقترنٍ بحَثٍّ على تركِ التَّكذيبِ، وحضٍّ على الإيمانِ والتَّصديق.

بلاغةُ اختتامِ الأقوالِ بهذا الأمرِ:

بيانُ عاقبةِ المُكذِّبينَ بالحقِّ

خَتمَ البيانُ القرآنيُّ الأقوالَ المتقدِّمةَ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ بعدَ سلسلةٍ منَ الأوامرِ القوليَّةِ الدّالَّةِ على الاهتمامِ بتلك المقولات، وإلّا فكلُّ ما في القرآنِ أقوالٌ يَنبغي الاهتمامُ بها، وقد ابتُدِئَت بتَعْجيزِ ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ تَعالى عن خلْقِ شيءٍ منَ الأشياء، وثنّاها ببيانِ ما يلزَمُ من الافتراءِ على اللهِ سُبحانَهُ منَ العِقابِ لإثباتِ صِدقِ النبوَّة، وثلَّثَها بدحضِ الافتراءِ نفسِهِ بعدمِ كونِهِ بِدعًا منَ الرُّسُل، وخُتِمَت بفرضِ كونِهِ صادقًا، وما الذي يلزمُ على هذا الفرضِ عندَ وُقوعِهِ منَ خسرانِهِ؛ إذ هُم استمرّوا في عنادِهِم، وهذه عادةُ المُناظرينَ في إجابةِ المُتعنِّتين؛ بأن يُظهِروا عاقبةَ عدمِ التَّصديقِ بالحقِّ.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وغرضُهُ:

تقريرُ المُكذِّبين على ظُلمِهم حثٌّ لهم للنَّظَرِ في مآلِهِم

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ خارجٌ عن أصلِهِ من إرادَةِ طلبِ العِلْمِ بشيءٍ لَم يكُن معلومًا من قبلُ، إلى إرادَةِ التَّقريرِ والإلجاءِ إلى الإقرارِ بحالِهم وظُلْمِهم الشَّديدِ لأنفُسِهم وللحقِّ؛ لو ثبتَ صِدقُ القرآنِ، وصحَّ أنَّه من كلامِ اللهِ تعالى، والغرضُ

من تقريرِهم على ظُلْمِهم حينئذٍ إقامةُ الحُجَّة عليهم، ودفعُهم إلى النَّظرِ في مآلِهم ووَخامةِ عاقبتِهم لعلَّهم يَرجِعونَ.

والاستفهامُ داخِلٌ على فعلِ الرُّؤيةِ لتقريرِهم على رُؤيتِهم ظُلمَهم واقعًا منهم، فيكونُ جرًّا لهم إلى أعلى درجاتِ الإقرارِ بما يَرَونهُ حينئذٍ من ظُلمٍ بأنفسِهم، وفي التَّقريرِ برُؤيةِ الظُّلمِ الصّادرِ منهم حينئذٍ كنايةٌ عن شدَّةِ خسارتهم لما يَرونَهُ من عذابٍ نشأ عن ظُلمِهم.

دلالةُ استعمالِ مُفردة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ دونَ مُرادفاتِها:

ظـهـورُ ظُـلْـمِ المُـكـذِّبين غايةَ الظُّهورِ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الرُّؤيةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دونَ التَّعبير بالعِلْمِ - (أعلِمْتُم) - أو الإخبار - (أخبروني) - مَثَلًا؛ للدَّلالة على أنَّ الظُّلمَ الصّادرَ منهُم - على فَرْضِ صِدقِ القرآنِ، وهو كذلك - معتقَدٌ لهم نَظَرًا وفِكرًا؛ حتّى إنَّه يصلُ إلى درجةِ اليقينِ؛ لِما في فعلِ الرُّؤيةِ القلبيَّةِ مِن الجزمِ بالوقوعِ؛ حتّى كأنَّ القلبَ يَرى، ويُبصرُ الحقيقة، فلا يَجِدونَ فِكاكًا مِنَ الإقرارِ به حتى كأنَّ الظُّلمَ مُشاهَدٌ لهم بالبَصيرةِ.

وفي التَّعبير بفعل الرُّؤيَةِ أيضًا إيماءٌ إلى ظهورِ كُفْرِهم غايةَ الظُّهورِ حتّى أشبَهَ المحسوساتِ التي يُدركُها كلُّ ذي بصَرٍ.

نكتةُ حذفِ مَفعولَي فعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

الإقـرارُ بالظُّلْمِ إقـرارٌ بالعاقِبةِ الوَخيمَةِ

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مفعولَي الفعلِ القلبيِّ (رأيت) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالةِ السِّياق عليهما، والتَّقدير: أرأيتُم حالَكم؛ إن كانَ القرآنُ مِن عند اللهِ تعالى؟ أَلَستُم ظالمِينَ؟ فالمفعولُ الأوَّل: حالُكم، والآخَرُ: أَلَستُم ظالمِينَ[1]؟ وفي تسليطِ فعلِ الرُّؤيةِ على حالِهم أنفسِهم إيماءٌ إلى أنَّ الفاعلَ كأنَّهُ يُعلِمُ نفسَه، ويُريها عاقبتَهُ، ويُطلعُ ذاتَه على نتيجتِهِ الوخيمةِ، فهو

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 436.

لا يُقِرُّ للآخرينَ بظُلمِهِ وإنَّما يُري نفسَهُ ظلمَها وجنايتَها؛ دلالةً على شدَّةِ الإقرارِ وصدقِ المُقِرِّ؛ إذ أصدقُ ما يكونُ الإقرارُ للنَّفس.

مَوقِعُ جُملةِ الشَّرط ﴿إِن كَانَ﴾:

الجُملةُ الشَّرطيَّةُ الواردةُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مُعترضةٌ بينَ المفعولِ الأوَّلِ المَحذوفِ ودليلِ المفعولِ به الثّاني المحذوفِ أيضًا[1]، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفائدةُ الاعتراضِ بها تقييدُ رُؤيتِهم ظُلمَهم بذلك الشَّرط المقدَّرِ المفروضِ حُصولُه، وما يلزمُ على تقديرِ وقوعِهِ من خُسرانٍ مُبين.

التَّأكيدُ على ظُلمِ المُشركين أنفُسَهُم

مَعْنى ﴿إِن﴾ ودلالتُها:

جاء التَّعبيرُ بحرفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهوَ دالٌّ على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِهِ مع أنَّ الأمرَ المفروضَ مُتحقِّقُ الوقوع؛ وذلك جاء مجاراةً للخصمِ في اعتقادِهِ عدمَ الحصولِ أوِ الشَّكَّ فيه إنصافًا في الكلام[2]، فقد أُشيرَ إلى أنَّ مجرَّدَ الشَّكِّ في الوقوعِ يَجعلُهُ أمرًا مُمكِنَ الوقوع، وهذا الإمكانُ كافٍ في إعادة النَّظرِ في البراهينِ المتقدِّمة على صِدقِ النُّبوَّة والرِّسالة قبلَ الخُسرانِ الوَخيم.

تنزيلُ المُتحقِّقِ منزلةَ المشكوكِ في المحاورَةِ إنصافٌ في الكلامِ

غرضُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَوْنِ ﴿كَانَ﴾:

دلَّ استعمالُ فعلِ الكَوْنِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على مُطلَقِ الحدثِ الشّاملِ للنُّزولِ والإيحاءِ والإخبارِ والإلهام، فعدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن كلِّ تلك الأفعالِ الخاصَّةِ إلى فعلِ الكَوْنِ العامِّ؛ ليَشمَلَ جميعَ الآيات التي يُكذِّبونَ بها على وجهٍ موجَزٍ، فإنَّ التَّكذيبَ بالقرآنِ الكريمِ تكذيبٌ بكلِّ الآيات والبيِّناتِ التي يأتي

التَّكذيبُ بالقُرآنِ تكذيبٌ بكلِّ صوَرِ البُرهان

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 26/ 174.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 21.

النَّبيُّ الكريمُ ﷺ لهم بِها، فالضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ راجِعٌ إلى القرآنِ المُشتمِلِ على جميعِ الآياتِ.

مَعنى ﴿مِنْ﴾ وفائدتُها:

ربّانيَّةُ مصدر القرآن الكريمِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على الابتداءِ؛ تمييزًا له عن كونِهِ من عندِ البشر، وإخبارًا عن ربّانيَّةِ مَصدَرِهِ وعلوِّ مَنزلتِهِ وسموِّ مقامِه، وفي الاقتصارِ على ذكرِ الابتداءِ دونَ الانتهاءِ دلالةٌ على استمراريَّةِ خطابِهِ للبَشَرِ على مرِّ الأعصارِ والأقطارِ في البوادِي والحَضَر.

دلالةُ ذِكرِ الظَّرف ﴿عِندِ﴾ مضافًا:

بيانُ عظمَةِ المُنزِلِ وشرفِ المُنزَلِ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الظَّرفَ ﴿عِندِ﴾ مجرورًا بـ ﴿مِنْ﴾ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ تأكيدًا على ربّانيَّةِ مصدرِ القرآن الكريم، وبيانًا لشرفِه وعلوِّ منزلَتِه؛ إذ كان نازلًا من عند الله سُبحانَهُ.

وفي التَّنصيص على مصدرِ القرآن الكريم التَّأكيدُ على محطِّ التُّهمةِ والاعتراض، فقد اعتقَد المشركونَ أنَّه مُفترًى على الله تعالى، فكان في التَّنصيصِ على العنديَّة ردٌّ عليهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

لا يليقُ بالقرآنِ الكريمِ إلّا أن يكونَ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيم

جاء التَّعبير بالاسمِ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه منسوبٌ لله تعالى نازلٌ من المقام الرَّفيع؛ إذ لا يليقُ بإعجازِهِ وبلاغتِهِ وتعذُّرِ مُعارضتِهِ إلّا أن يكونَ مِنَ الله تعالى، فيكونُ بمنزلةِ الاستدلالِ على صحَّةِ الفَرْض؛ إذ إنَّ عَجْزَ العربِ وغيرِهم عن مُعارضتِهِ يَجعَلُ العقلَ مُحيلًا بَشريَّتَهُ.

نكتةُ حذفِ جملةِ جوابِ الشَّرط:

طَيُّ ما دلَّ السِّياقُ عليهِ إيجازًا واختِصارًا

حُذِفَتْ جملةُ جوابِ الشَّرطِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالةِ دليلِ المفعولِ الثَّاني عليها[1]، والتَّقديرُ: (إن كان من

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 299.

عند اللّه، وكَفَرتُم؛ فاللّه لا يَهديكُم)، ويجوزُ أن يكون التَّقدير: إن كان كذلك؛ فمَن أضلُّ مِنْكُم[1]، أو التَّقديرُ: فمَن المُحِقُّ مِنّا ومِنكُم، ومَنِ المُبطِلُ؟[2].

وحُذِفَ الجوابُ واقتُصِرَ على دليلِهِ؛ ليكونَ أمرًا ثابتًا لعدمِ هدايتِهم وتوفيقِهم للإيمان، وليسَ مُسبَّبًا عن كونِهِ مِن عندِ اللّه تَعالى وكُفرِهم به، بل هو سببٌ لعدمِ اهتدائِهم، أي: لم يَهدِهم اللّه سُبحانَهُ؛ لأنَّ اللّه لا يهدي الظّالمينَ.

دَلالة الواو في ﴿وَكَفَرْتُم﴾:

شناعَةُ كُفْرِهِم وشِدَّتُه

(الواو) في ﴿وَكَفَرْتُم﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حاليَّةٌ؛ والجملةُ بعده حالٌ بإضمارِ حرف التَّحقيق (قَد).

وفي توسيطِ الحالِ بينَ أجزاءِ الشَّرط مُسارعةٌ إلى التَّسجيلِ عليهم بالكُفر.

ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ عاطفةً ما بعدَها على جملةِ: ﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، لكن لا على أنَّ نظمَهُ في سِلْكِ الشَّرطِ المُتردَّدِ بين الوقوعِ وعدمِهِ عندَهم باعتبارِ حالِهِ في نفسِه، بل باعتبارِ حالِ المعطوفِ عليهِ عندَهم، فإنَّ كُفْرَهم بهِ مُتحقِّقٌ عندَهم، وإنَّما تردُّدُهم في أنَّ ذلك كفرٌ بما عندَ اللّهِ تَعالى أم لا؟ وكذا الحالُ[3].

ورجَّحَ الزَّمخشريُّ كونَ الواوِ عاطفةً؛ حملًا لهذه الآيةِ على نظيرتِها في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: 52][4].

وحملُ الواوِ على الحالِ أرجحُ، ويكون التَّقييد بالحالِ تشنيعًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 8/ 19.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 300.

لكفْرِهم، فيُفيد ذلك شدَّةَ ذلك الكُفر على تقديرِ ثبوتِ كونِهِ من اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الكُفر) دونَ (التَّكذيبِ):

ظُـهـورُ أدلَّـة ربّانيَّة الـقُرآن الكريم ظُهورًا لا يَخْفى عَلى أحَدٍ

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الكُفر في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ دونَ التَّكذيبِ، فلم يَرِد في البيان القرآني: (وكذَّبتم به)؛ لأنَّ أصلَ الكفرِ تغطيةٌ وسترٌ للشَّيء، ففي التَّعبيرِ بِهِ دلالةٌ على أنَّ الكفرَ بالقُرآنِ الكريمِ وجحدَهُ لا يكونُ إلّا على جهةِ التَّغطيةِ للحقِّ والحقيقَةِ؛ إذ مجرَّدُ سَماعِ كلامِهِ وقوَّةِ بُرهانِهِ وسُطوعِ آياته يَكفي للإيمانِ بأنَّه من عند اللّه تَعالى، ثمَّ إنَّ عجزَ المعارضينَ عن مُقارعتِهِ لهو من أكبرِ الأدلَّةِ على أنَّه من اللّه تعالى، فلا يكونُ جحدُهُ إلّا عن تغطيةٍ وإخفاءٍ للحقِّ ومكابرَةٍ.

مَعْنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

رسوخُ الكافرينَ في عداوةِ القُرآنِ الكريم

عُدِّيَ فعلُ الكفرِ بـ (الباء) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ لِما في الباءِ من معْنى الإلصاقِ[1]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّهم كفروا بالوَحْيِ المُنزل، وجحدوا الحقَّ الإلهيَّ بعد صِلَتِهم به ومعرفةِ صِدْقِه، وأنَّ كفرَهُم ليس عارضًا بل لَزِموهُ، والتَصَقوا بِهِ.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾:

اجتماعُ العقلِ والـنَّـقْـلِ على صحَّةِ القُرآنِ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ على قولِهِ: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ ظُلمِهم الَّذي صدرَ منهُم معَ كونِهِ من عندِ اللّه تَعالى، ومعَ كونِ الشَّهادةِ ثابتةً لصحَّتِهِ من أهل الكتاب، وبذلك يجتمِعُ الدَّليلُ النَّقليُّ مع الدَّليلِ العقليِّ على ظُلمِهم لأنفُسِهم، فقد دلَّ العقلُ على ظُلمِهم؛ إذ كفَروا معَ كونِهِ من عند اللّه تَعالى لتعذُّرِ مُعارضتِهم له، ودلَّ النَّقلُ على صحَّتِه بشهادةِ أهلِ الكتابِ

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137.

لهُ بالصِّدقِ لموافقتِهِ في رفضِ عبادةِ غيرِ اللّهِ تَعالى والإيمانِ باللّهِ سُبحانَهُ الواحد.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (شَهِدَ):

جاءَ التَّعبيرُ عن الشَّهادة بصيغَةِ الفِعْلِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الشَّهادةَ قد صدرَتْ في الماضي كما هو المُتبادِر، سواءٌ قلنا: إنَّ (الواو) فيهِ للعطفِ أو للحالِ، ولكن ذهبَ بعضُ المُفسِّرين[1] إلى أنَّ الشَّهادةَ واقعةٌ في المستقبلِ وأخبرَ عنها بلفظِ الماضي؛ تنزيلًا للمستقبلِ منزلةَ الماضي إعجازًا وبرهانًا على أنَّ القرآنَ الكريمَ حقٌّ من عند اللّه تعالى، فتكونُ الشَّهادةُ حقًّا، والإخبارُ عن وقوعِها في المستقبلِ حقًّا كذلكَ[2].

من مظاهرِ إعجازِ القُرآن الكريمِ الإخبارُ عن الغيوبِ المستقبَلَةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿شَاهِدٌ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن خبرِ المُخبِرِ بالمشتقِّ من الشَّهادةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ فقد شُبِّهَ الخبرُ بالشَّهادة بجامعِ الإخبار في كلٍّ، ولكونِ كلامِ هذا القائلِ بمَنزلةِ البيِّنةِ لأحَدِ الفريقين، فكأنَّه يُقدِّمُ شهادةً في تصحيحِ قولِ أحدِهما وبرهنَتِه، واستُعيرَ لفظُ الشّاهدِ دونَ المخبِرِ توثيقًا لِلخبرِ، وتنزيلًا له منزلةَ الخبرِ الذي لا يصدُرُ إلّا عن شُهودٍ ومُشاهدةٍ.

من توثيقِ الكلامِ تشبيهُهُ بالشَّهادة عندَ الحُكّام

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَاهِدٌ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿شَاهِدٌ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ لشَأنِ ذلك الشّاهدِ، والمعنى: شهِدَ شاهدٌ عظيمُ الشَّأن[3]، ممّا يَستلزِمُ صِدقَهُ وأمانتَهُ عندَ أهلِ الكتاب وثِقَتِهم

تعظيمُ شأنِ الشّاهدِ تأكيدٌ لعِظَمِ صدقِهِ في الشَّهادَةِ

(1) الإيجي، جامع البيان: 4/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 21.
(2) القونوي، حاشيةٌ على تفسير البيضاوي: 17/ 461.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 27.

بكلامِه، ولم يُسَمَّ الشّاهدُ باسمِهِ العلَم أو باسمِ الجنس كـ (رجل)، بل أُتِيَ به وصْفًا؛ لإثباتِ أنَّ الذي شَهِدَ إنَّما هو شاهدٌ يَستحِقُّ وصفَ الشَّهادةِ، وقد قامَ به هذا الوصفُ؛ تأكيدًا على عِظَمِ صِدقِهِ فيها وتأديتِهِ لها بوجهٍ كاملٍ.

ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ الجنسِ الصّادقِ على الواحدِ أو الكثرةِ، والتَّقدير: وشهدَ شاهدٌ واحدٌ أو أكثرُ[1].

مَعْنى ﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

عِلْمُ الشّاهد مدعاةٌ لقَبول شَهادَتِه

﴿مِّنْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ لبيانِ أنَّ هذا الشّاهدَ لَهُ عِلْمٌ سابقٌ بالكُتُبِ المُنزَّلَةِ؛ تعظيمًا لشهادَتِهِ وبَيانًا لِموثوقيَّتِها.

غرضُ التَّعبيرِ بـ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾:

تعظيمُ شأن الشّاهِدِ تعريضٌ بحالِ المكذِّبينَ

جاءَ التَّعبير بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهي جهةٌ نَسَبيَّةٌ ودينيَّةٌ معًا، بخلافِ التَّعبيرِ بـ (أهل الكتاب) الدّالِّ على جهةٍ دينيَّةٍ فحسبُ؛ وذلك نظرًا لما تحتاجُهُ الشَّهادةُ من عاملٍ دينيٍّ يحملُ صاحبَها على النَّزاهة، ونسبيٍّ يَحملُ صاحبَها على عدمِ تنكيسِ نَسَبِهِ الشَّريفِ بشَهادةِ الزّور، ففي وصفِ الشّاهد بأنَّه من بَني إسرائيلَ تعظيمٌ للشّاهد، وتفخيمٌ لمكانتِهِ النَّسبيَّةِ والدّينيَّة معًا، وفي خطابِ المُشركينَ من أهلِ مكَّةَ بهذا العنوانِ إيماءٌ إلى الذين جرَتْ عادتُهُم أن يَستفتوهُم، ويَثِقوا بأقوالِهِم، فإنَّهم يشهدونَ على صحَّةِ القرآنِ الكريم الذي كَذَّبتُم به[2].

نكتةُ تعديةِ فعلِ الشَّهادَةِ بحرفِ الاستعلاء:

عظمَةُ الشَّهادة وكمالُ دِلالَتِها على الحقِّ

عُدِّيَ فعلُ الشَّهادةِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على استعلاءِ شَهادةِ الشّاهد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 137.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 137.

على المشهودِ له، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ يدلُّ على شهادةٍ مُتمكِّنةٍ للشّاهدِ على ما يشهَدُ به، وهذا التَّمكُّنُ والاستعلاءُ يدلُّ التزامًا على عظمةِ تلك الشَّهادةِ وصِدقِها وكمالِ دِلالتها على الحقِّ.

دِلالةُ التَّعبير بلفظِ (مثل):

التَّنبيهُ على عَظَمَةِ القُرآن الكريمِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بـ (المِثل) في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على عَظمةِ المَشْهودِ له؛ إذ كانتِ الشَّهادةُ على مثلِ القرآنِ بالحقِّ، فما الظَّنُّ بالقُرآن نفسِه، فكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ القرآنَ العظيمَ لا يَحتاجُ إلى شَهادةِ صِدقٍ بحقِّهِ فيما لو تعقَّلَهُ المُتأمِّلُ بصدقٍ، وهذا مثلُ قولِهم: (مثلُكَ لا يبخَلُ) في الدَّلالةِ على كمالِ المَمدوحِ بالكرمِ بنَفْيِ البُخلِ عن مثيلِه، فكيفَ إذا كان هو بذاتِه[1]؟

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في لفظِ ﴿مِثۡلِهِۦ﴾:

تَعَدُّد احتِمالاتِ مَرجِعِ الضَّميرِ إثـراءٌ للمعاني القرآنيَّةِ

يجوزُ أن يعودَ الضَّميرُ في ﴿مِثۡلِهِۦ﴾ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ إلى القُرآنِ العَظيم بقيدِ كونِهِ الحقَّ، وبقيدِ كونِهِ من عندِ الله تعالى، والمَعنى: شهد شاهدٌ من بني إسرائيلَ على مثلِهِ في المَعْنى، وهو ما في التَّوراة من المَعاني المُطابقةِ لمَعاني القُرآنِ منَ التَّوحيدِ والوعدِ والوعيدِ وغير ذلك[2]، وعلى هذا؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بلفظِ ﴿شَاهِدٞ﴾، والمَعْنى: ويشهَدُ على صحَّةِ القُرآن[3]، وفي إضافةِ المثلِ إليه دلالة على كونِ المُماثِلِ لهُ حقًّا؛ فهو من بابِ الأوْلى، ويجوزُ أن يكون الضَّميرُ راجعًا إلى كونِه من عندِ اللهِ تَعالى[4]، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقين بـ (شَهِدَ)[5]، فجُعِلَت شهادتُه عَلَى أنَّه ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ شهادةً على مثلِه، أي: مثلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 20.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 118.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 118.

شَهادةِ القُرآن؛ وذلك لأنَّه بإعجازِهِ كأنَّه يشهَدُ لنفسِهِ بأنَّه مِن عندِ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

مَعْنى (الفاءِ) في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ﴾:

وجـوبُ المُـبادرَةِ إلى الإيمانِ بَعْدَ بُلوغِ الحقِّ

(الفاء) في ﴿فَـَٔامَنَ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عاطَفةٌ، وهي مفيدَةٌ تعقيبَ الشَّهادةِ الحقَّةِ بسرعةٍ بالإيمانِ الصّادق، وأنَّه امتثلَ لشَهادتِهِ مُبادِرًا بالإيمانِ عقيبَها؛ ليكونَ قُدوةً لغيرِهِ حتَّى يُبادِروا إلى الإيمانِ بعدَ سَماعِ الشَّهادةِ منهُ[2]، كما أفادت الفاءُ مَعْنى السَّبَبِيَّة كذلك، فيكون الإيمانُ مسبَّبًا عن الشَّهادَةِ على مثلِهِ؛ وذلك لأنَّه لمّا علم أنَّ مثلَهُ قد أُنْزِلَ على نبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام، وأنَّه من جنس الوَحْيِ لا من كلام البشرِ، وقد أنصفَ، فشهدَ عليه، وأقرَّ، فآمَنَ[3].

سرُّ ذكرِ الإيمانِ دون الإسلامِ:

إظـهـارُ شـرفِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ دونَ فعلِ الإسلامِ؛ لإظهارِ شرفِ الإيمانِ وعلوِّ رُتبتِهِ على الإسلام، وليكونَ حافزًا للسّامعينَ على تحصيلِ ذلك الإيمانِ، واختيرَت صيغَةُ الماضي؛ للدَّلالةِ عَلى تحقُّقِ وقوعِ الإيمانِ منهُ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ على ﴿فَـَٔامَنَ﴾:

تبايُنُ الحَدَثَينِ مُسوِّغٌ للجمعِ بينَ الضِّدَّينِ

عطفَ النَّظمُ القرآنيُّ جملةَ الاستكبارِ على جملةِ الإيمانِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ من بابِ عطفِ المتقابلَيْنِ، وبين جملةِ (استَكْبَرْتُم) وجملةِ (آمَنَ) توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الخبريَّةِ، وبينهما تناسب في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسب اللَّفْظِيُّ؛ فاتِّحادُهما في الفعليَّةِ والماضويَّةِ، وأمّا التَّناسب المعنويُّ؛ فلما بينَهُما من التَّضادِّ، فإنَّ الإيمان إذعانٌ وانقيادٌ، والكُفْرَ استكبارٌ وعنادٌ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 462.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 300.

ترتيبُ المُتعاطِفات:

التَّدرُّج الدَّلالي في تَراكيبِ العَطْفِ بالواوِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وردَ أكثرُ من عطفٍ بالواو، فالأولى عاطفةٌ جملة: (كفرتُم) على فعل الشَّرْطِ، وكذا الواوُ الأخيرة عاطفةٌ جملة: (استكبرتُم) على (آمَنَ)، وأمّا الواو في ﴿وَشَهِدَ﴾؛ فإنَّها عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جُمْلَةِ: ﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾، والمعنى: أخبروني إنِ اجتمَعَ كونُ القرآنِ من عند اللهِ تَعالى مع جَحْدِكُم لَهُ وكُفْرِكم به، وقد اجتَمَعَ شهادةُ أعلم بني إسرائيلَ على نزولِ نظيرِه، فيكون إيمانُهُ به واستكبارُكم عنه دالًّا على ضلالِكُم أعظمَ الضَّلالِ وأبعَدَهُ[1].

بلاغةُ العدولِ عن الكُفرِ إلى الاستِكْبار:

الاستِكبارُ مِن أعظَمِ أسبابِ الكُفر

عدلَ النَّظمُ القرآنيُّ عن التَّعبيرِ بالكفرِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ إلى التَّعبيرِ بالاستكبار، وهو ملزومٌ للكفر؛ للدَّلالةِ على سببِ الكُفر وعِلَّتِهِ[2]، فَلَم يكُنْ جُحودُهم عن دليلٍ نقليٍّ أو عقليٍّ، بل الحاملُ لهم على ذلكَ هو الكِبْرُ والتَّرفُّعُ عن الحقِّ، ممّا يدلُّ على يقينِهِم في أنفُسِهم بأنَّه حقٌّ، لكن منَعَهُم منه الكِبْرُ والاستكبار، فكانَ في ذكرِهِ ذِكرٌ للكُفر مع علَّتِهِ المانعةِ له.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مِن موانِعِ الهِدايَةِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ للدَّلالةِ على تعليلِ الكلامِ السّابقِ؛ إذ قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ دلَّ على الكلامِ المَحذوفِ مِن جهةٍ، وعلَّلَتْهُ من جهةٍ أُخرى، فقد حُذِفَ مفعولا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وجوابُ الشَّرطِ بدلالةِ هذه الجملةِ، وقد أفادَت تعليلَ ذلك

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 310، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 6/ 119.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 138.

المحذوفِ، فَظلْمُهم لأنفُسِهِم وضلالُهُم العجيب في كُفرِهم؛ لِما دلَّ عليه النَّقْلُ والعقلُ، كان سببًا في عدمِ هدايةِ اللهِ تَعالى لَهُم.

بلاغةُ التَّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تحقيقُ علَّةِ الكُفرِ والضَّلالِ

صُدِّرَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ نسبةِ النَّفي معَ تعليلِ الكلامِ السّابقِ تعليلًا مُؤكَّدًا، والغرضُ من التَّوكيدِ تحقيقُ الإخبار بعلَّةِ عدمِ هِدايتِهم للحقِّ؛ إذ استكبارُهم وضلالُهم وظُلمُهم مَنَعَهم من الإيمانِ بعدَ أن أدركوه، فلم يشأ اللهُ تَعالى هدايتَهُم.

غرضُ تقديمِ المسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ:

مَن حُرِمَ الهِداية؛ وقعَ في الغَواية

قُدِّمَ المسندُ إليه، وهو الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿يَهۡدِي﴾؛ لتقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، وذلك لتكرارِ النِّسبةِ مرَّتين، فالأولى في إسنادِ الهدايَةِ المنفيَّةِ إلى الاسمِ الأحسنِ الواقعِ اسمًا لـ ﴿إِنَّ﴾، والأخرى في إسناد الضَّمير المستتر في ﴿يَهۡدِي﴾ إليه، وتكرارُ النِّسبةِ من ضروبِ التَّوكيدِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الأحسَنِ:

الجزاءُ مِن جِنسِ العمَلِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عُنوانَ الألوهيَّة - الَّتي استكبروا عليها، وكَفَروا بها - كانت مانعةً لهُم مِنَ الهِداية؛ إذ الاسمُ الأحسنُ جامِعٌ لِصفاتِ الجلالِ والكَمالِ، فيكونُ ذكرُهُ مُرَهِّبًا لهم، ومعلِّلًا نفيَ هِدايتِهم.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآيةِ:

التَّصريحُ بالهِدايةِ المنفيَّة لكونِها النَّتيجةَ اللّازِمة

ذُيِّلتِ الآية الكريمة بقولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّتيجةِ التي استحقّوها جرّاءَ ظُلمِهم واستكبارِهم عن الحقِّ، معَ توافُرِ الدَّواعي النَّقليَّةِ والعقليَّةِ لذلك

الإيمانِ المستحقِّ، وصُرِّحَ بالهدايةِ المنفيَّةِ؛ لكونِها النَّتيجةَ اللّازمةَ، ولذا كانت هذه الجملةُ تهديدًا قائمًا مقام الجواب المحذوفِ، والتَّقدير: إن كان من عند اللهِ تَعالى، وكفرتُم به؛ فإنَّكم لستُم بمُهْتَدين، بل إنَّكُم ضالّونَ[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَهۡدِي﴾ مادَّةً وصيغةً:

الاستِكبارُ والضَّلال مُتلازِمان

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الهدايةِ منفيًّا في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على إثباتِ ضدِّه، وهو الضَّلالُ؛ إيماءً إلى التَّلازُمِ بين الاستكبارِ عَنِ الحقِّ وبينَ الضَّلال.

واختير الفعلُ المُضارِعُ ﴿يَهۡدِي﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والاستِمْرار، والمرادُ استمرارُ النَّفي لا نفيُ الاستمرارِ، فإنَّهم ما داموا قائمينَ على الظُّلْمِ والاستكبارِ والعنادِ؛ فإنَّ الهدايةَ عنهم بمعزِلٍ.

علَّةُ ذِكْرِ الموصوفِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

تناصُرُ الظّالمين مِنَ الضَّلالِ المُبين

آثرَ النَّظمُ ذِكرَ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظّالمينَ المَذكورينَ قد قاموا بالأمرِ، وأخذوهُ على عاتقِهم، ودافَعوا عنه مُدافعةً قويَّةً حتى كانوا مُتناصِرينَ في طريقِ الضَّلال والظُّلْمِ؛ إذ لفظُ القوم مُشْعِرٌ بأنَّهم جماعةٌ، لهم قدرةٌ على القيامِ بما يُريدونَ مُحاولتَهُ[2]، ومِن ثَمَّ استحقّوا عدمَ الهدايةِ والتَّوفيقِ للخَير.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مِن موانِعِ الهِدايَةِ

(الـ) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ دالَّةٌ على الاستغراقِ، فيفيدُ أنَّ اللهَ تعالى لا يَهدي كلَّ ظالمٍ لربِّهِ ومَقامِهِ الشَّريف، ويجوزُ أن تكونَ (الـ) لِلعَهْد، والمرادُ: المُستكبرونَ عن الحقِّ المذكورون آنِفًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 12.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 139.

ويحتملُ أن تكون (الـ) موصوليَّةً، أي: الَّذين ظَلَموا؛ ليكونَ علَّةً لعدمِ هدايتهم؛ إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على علِّيَّةِ المَأخَذِ فيه، والتَّقديرُ: (لا يهديهُمُ اللهُ لظُلْمِهم)[1].

دلالةُ الوَصْفِ بالظّالمينَ دونَ الكافرينَ أوِ المُستكبرين:

الظُّلْمُ مِن لَوازِمِ الكُفْرِ والاستِكْبارِ

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ المُكذِّبين بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع تقدُّمِ صُدورِ الكُفر والاستكبارِ منهُم؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّ الكُفرَ والاستكبارَ ظُلْمٌ للحقِّ والنَّفس، ولو جاء في البيان القرآني: (لا يهدي القوم الكافرينَ) أو (القومَ المُستكبرينَ)؛ لَما عُلِمَ لازمُ الكُفر والاستكبارِ، وهو الظُّلْمُ والطُّغيانُ ومُجاوزةُ الحقِّ بنُصرةِ الباطل.

براعةُ الجمعِ بينَ أوصافِ (الكفر والاستكبار والظلم) لموصوفٍ واحدٍ:

الاستِكْبارُ تعليلٌ للكُفْرِ، والظُّلْمُ نتيجةٌ ذلكَ كُلِّه

جمعَت الآيةُ الكريمةُ بينَ أوصافٍ ثلاثةٍ، وهي: الكُفر والاستكبار والظُّلم في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لوجودِ تلازُمٍ بينَها؛ إذِ الكفرُ والجُحودُ للحقِّ لازمٌ عن الاستكبارِ ومُسبَّبٌ عنه، وكلٌّ من الاستكبارِ والكُفر مُسبِّبانِ للظُّلم للنَّفس وللحقِّ، ومِن ثَمَّ انتفتِ الهدايةُ عنِ الظّالمينَ لصُدورِ الكِبْرِ والكُفرِ منهُم، فتكونُ الآيةُ الكريمةُ قد ذكرَتِ الاستكبارَ تعليلًا لِلكُفرِ، وذكرَتِ الظُّلمَ نتيجةً لتحقُّقِ كلٍّ من الكُفْرِ والاستكبارِ.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الاستكبارُ والطُّغيانُ:

الطُّغيانُ أعمُّ من الاستكبارِ

الاستكبارُ: طلَبُ الكِبْرِ، والتَّعالي على الحقِّ، وترْكُ التَّواضُعِ وهَضْمِ النَّفس، وحقيقتُهُ: الامتناعُ عن قبول الحقِّ تعاظُمًا،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 27/ 28.

فالاستكبارُ طلبُ الكِبْرِ بغير استحقاقٍ له؛ لأنَّ صاحبَهُ يُظْهِرُ من نفسِهِ ما ليس لَهُ، ولذا عُبِّر عنه بصيغة الطَّلَبِ؛ إيذانًا بأنَّ مآلَهُ الطَّلَبُ المحض من غيرِ حصولٍ للمطلوبِ[1].

وأمّا الطُّغْيانُ؛ فهو مجاوزةُ الحدِّ في كلِّ شيءٍ، وهو في الاستعمال القرآنيِّ يُراد به: الغلوُّ في الكُفْرِ ومجاوزةُ الحدِّ في المعاصي، وفيه إفراطٌ ومبالغةٌ في الشَّرِّ والكِبْرِ[2].

وبهذا التَّقرير يكون الطُّغْيانُ أعمَّ من الاستكبارِ، من جهةِ أنَّ الطُّغيانَ مجاوزةُ الحدِّ في الكفْرِ أو المعاصي.

(1) محمد ياس خضر الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 195.

(2) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 143 - 145.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"